(٥)

للصوص فقط*

فى صفحته الهادئة من مجلتنا أكتوبر، التى يمكن أن نسميها صفحة المودة، لأنها دائما تريد أن تهدئ الجو بيننا وبين الدنيا، لأن الذى لا يعرفه الناس عنا هو أننا فى مجلة أكتوبر – باستثناء العزيز صلاح منتصر (رئيس التحرير فى ذلك الوقت) وعبد العزيز صادق (نائبه) مجموعة من المجانين نريد إصلاح الدنيا، ولهذا فإننا دائما فى خناقة، وأيدينا فى رقاب الناس، وأيدى الناس دائما فى رقابنا، لأننا نريد أن نصلح الدنيا، والدنيا من حولنا تقول إننا لن نستطيع، وكل منا يحمل على كتفه عبئا من القضايا من كل لون.. إلا عبد العزيز صادق. فهو دائما هادئ عف اللسان راسى العقل، وكلماته الرصينة هى البلسم الذى يشفى جروح المعارك.

أقول إن عبد العزيز صادق كتب فى العدد ٥٧٩ من مجلة وجع الدماغ هذه بتاريخ ٢٩ نوفمبر يقول: أحاديث الناس هذا الأسبوع، دارت حول النشاط الذى دب فجأة – وبلا مقدمات – فى إدارة الكسب غير المشروع.. الإدارة التى يعرفها الناس بأنها المسئولة عن قانون (من اين لك هذا)؟ القانون الذى تمنى الناس منذ سنوات قليلة أن يروه موضع التنفيذ بجدية وحق وصدق!! لجان إدارة الكسب غير المشروع بدأت التحقيق فى أكثر من قضية. فهذه قضية (فلان) الذى تضخمت ثروته حتى بلغت ٢٠ مليون جنيه فى رواية، و١٠ ملايين فى رواية أخرى.. تضم ثروات عقارية. وزراعية، فى القاهرة والإسكندرية وفى الأرياف أيضا! وهذه قضية (فلان) الذى استغل وظيفته فى الحصول على ربع مليون جنيه بدون حق!! وقضية (فلان) الذى حصل على أكثر من مائة ألف جنيه بطرق غير مشروعة!! أقول قولى هذا مع التأكيد الكامل على أن المتهم يظل بريئا إلى

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٠ ديسمبر ١٩٨٧م.

أن تثبت إدانته.. الناس – فى أحاديثهم – يتمنون أن تستمر إدارة الكسب غير المشروع فى هذه الصحوة المفاجئة التى انتابتها أخيرا.. وأن تبقى يقظة لتمسك برقاب الذين يغتالون الشعب فى أمواله.. حتى تتحقق أمنية راودت الشرفاء طويلا. أمنية رؤية محكمة الجنايات وقد وقف أمامها المختلس و المرتشى والمستغل لوظيفته، و الذى يحصل على فلوس بطرق ملتوية بعيدة عن الشرف والأمانة، والذى تتضخم ثروته فجأة بلا مبرر أو منطق معقول.. وتصدر أحكام المحكمة بمصادرة الثروات غير المشروعة.. وبالغرامة الواجبة.. وأن تصدر أيضا أحكام رادعة بسجن كل من امتدت يده لأموال الآخرين دون سند من حق أو قانون. لقد طال الزمن بنا.. ونحن نتمنى أن يجئ يوم يقال فيه للمرتشى والمختلس والحرامى: قف.. من أين لك هذا؟ هل يأتى هذا اليوم قبل أن نرحل عن هذه الدنيا؟! سؤال أتجه به للسيد المستشار فاروق سيف النصر وزير العدل.. مع تحياتى..

ولم أصدق عينى!

فقد كنت أدير فى ذهنى موضوع هذا العمل الذى أوجه فيه الكلام إلى لصوص مصر، أسألهم فيه أن (يلايموها بقى) وأن يختشوا، فقد نهبونا حتى لم تبق علينا إلا هدومنا.

وواحدة منهم فرت من شهور إلى الخارج بجواز سفر ابنتها حاملة معها فوق العشرين مليونا من الدولارات اقتطعتها من لحمنا لتعيش بها فى الخارج.

وكنت أريد أن أقول لأولاد الأبالسة اللصوص: دعوا شيئا لأولادكم الذين تربوا فى كليات اللصوصية على أيديكم غير الطاهرة وتخرجوا لصوصا، ومن حقهم أن يمارسوا مهنتهم. أردت أن أقول لهم: كفاية لحد كده، ودعوا الباقى للمحروسين أولادكم، وتأكدوا أيها اللصوص أن الله سيقصف رقاب أولادكم وأحفادكم، لأن الله سبحانه يمهل ولا يهمل، ولو كانت المعارك بين الأشراف واللصوص لابد أن تنتهى بانتصار الحرامية لأصبحت

الدنيا كلها فى أيدى الحرامية. ولكن الدنيا مازالت بخير، ويد الخير لابد أن تنتصر، وبمناسبة اللصوص الذين يسرقون ثم يهربون لينعموا بالمسروقات فى أوروبا.. أقول لهم: صدقونى أنكم لن تسعدوا فى أوروبا أو أمريكا، وليس فى الدنيا أتعس من لص هارب يعيش فى الغربة. إنه يعيش فى أفخر الفنادق ويأكل فى أغلى المطاعم، ولكنه رغم ذلك كله ميت.

وفى مقهى فندق برج فى جنيف رأيت لصاً مصريا معتقا. هبر هبرته وفر إلى هنا. بعد سنة من الهروب أحس أنه يعيش فى سجن كبير جدا يسمى أوروبا. هنا لا يكلمه أحد ولا يحترمه أحد، ولغته الهزيلة (الفرنسية أو الإنجليزية) لا تساعده على الخروج من ذلك السجن، وها هو ذا قابع فى المقهى وأمامه كأس من السم الهارى، وهو فى كل دقيقة ينظر فى ساعته – أغلى ساعة فى الدنيا طبعا – إنه ينتظر خادمة! أى والله خادمة! فقدت كل شىء حتى الشرف، وصاحبنا اتخذها عشيقة وكساها وصبغ شعرها من مال مصر المسروق.وجلس ينتظرها.وأخيرا جاءت لتتغذى على حسابه، والتعيس وقف احتراما لها، وحاول أن يعاتبها، ولكن لسانه عجز فسكت، ثم قادته من أذنيه لكى يشترى لها شيئا بألوف طبعا، ولم يسعه إلا الاستسلام. لأن هذه (الشردوحة) إذا غضبت تركته فعاد إلى الوحدة القاتلة.

وفى أحد مقاهى ميامى فى الولايات المتحدة كان رجال المخابرات الأمريكية يرقبون رجلا تعيسا جالسا فى ركن ينتظر عشيقته.. هذا الرجل كان رئيس جمهورية سابق فى أمريكا اللاتينية، وقد نهب حتى عمى، ثم قام عليه شعبه ففر بمسروقاته وبناته وامرأته إلى هنا.. فأما امرأته فقد احتملها سرطان رجيم إلى جهنم.

وأما بناته فقد تبذلن وتمرطن وعبث بهن من يساوى ومن لا يساوى، ونهب الرجال أموالهن، واختفين عن أنظار الوالد غير المحترم.

أما هو – شيخ المنسر – فلم يجد إلا بنتا غلبانه قالت له إن سنها خمس وعشرون سنة لكى يتخذها عشيقة.

والبنت حملت منه.

وهنا أطبق عليه البوليس لأنه اعتدى على قاصر، فإن البنت كانت فى السابعة عشرة، والمحكمة حكمت عليه بالسجن خمس سنوات، وأعطت البنت من ماله خمسة ملايين دولار تعويضا، مع الحجز على أمواله لصالح الابن الذى خرج إلى النور وأبوه يدخل السجن..

وفى ركن السجن المظلم جلس صاحب السعادة اللص السابق وهاتك العرض اللاحق يسأل نفسه: أهذا هو المصير؟ مادام المصير هو هذا السجن التعيس فلماذا سرقت؟ ولماذا هربت؟ كان سجن بلادى أرحم بى..

والقصة رواها واحد من أدباء أمريكا اللاتينية الذين حصلوا على جائزة نوبل، وهو أدواردو جاييجو.

وأعود إلى لصوصنا وإلى كلام عبد العزيز صادق وأسأل:

هل اللصوص هم المسئولون الوحيدون عن جرائمهم؟

إننى فى حياتى لم أسمع بأن إدارة الكسب غير المشروع قد شفت صدورنا مرة واحدة وأمسكت بلص من هؤلاء وقدمته للمحاكم، وصدر ضده حكم رادع.

دائما يمسكون باللص ويقدمونه للمحاكمة. والمحاكمة تطول سنوات والسادة المحامون يستكثرون فى الدفاع، والقضاة يؤجلون ويؤجلون، وأخيرًا، بعد أن يكون الناس قد نسوا القضية أو يئسوا منها، يجىء الحكم الذى يغيظ حقا: الإفراج لعدم توافر الأدلة! أو غرامة خمسة آلاف جنيه، لا عن السرقة، فالرجل لم يسرق – حاشا لله – ولكنه حاول تقديم رشوة لموظف شريف، أو نصف شريف، لا يهم، والعدالة أنكرت ذلك.

وكم من مرة أيها السادة أوقف موظف كبير جدا بتهمة كذا كذا وكذا وأحيل هو ومساعدوه إلى المحاكمة؟!

وقلنا: الحمد الله! جاءك الموت يا تارك الصلاة! وتارك الصلاة – والزكاة طبعا – هز أكتافه سخرية منا، ولسان حاله يقول: يا لكم من سذج إنكم لا تعرفون القانون!

ويقول المحامون الأشراف: بلى أيها المجرم نحن نعرف القانون، والقانون سيعرف كيف يعاقبك، وشلة المحامين التى استأجرها اللص تقول: أنتم تعرفون قانونكم، ولكنكم لا تعرفون قانوننا، لأن هذا البلد فيه قانونان: واحد هو هذا الذى تدرسونه فى كليات الحقوق، وواحد نتعلمه نحن فى السوق.

وسترون بأعينكم أى القانونين هو السارى.

وبعد سنوات من الأخذ والرد والاتهامات والدفاعات يصدر الحكم، والحكم لا يقضى بالبراءة فحسب، بل بعودة اللص ومساعديه إلى وظائفهم، وتمتلئ صفحات الجرائد عندنا بالتهانى.

نهنئ زفت البركة بالبراءة.. إنه رجل الشرف والأمانة..

نهنئ المواطن العظيم السابح فى دنيا الشرف والأمانة ونحيى القضاء العادل.

وينزل ذلك كله على قلوبنا جمرا ونارا.

ونقول: حقا إننا لا نعرف القانون

حقا إننا لا نعيش فى هذه الدنيا

إنها ليست دنيانا.. بل دنيا أهل العربدة والجرأة والوقاحة.

ونعزى أنفسنا ونقول: لو مرة واحدة فقط يهبط سيف العدالة على رقبة الجانى! لو مرة واحدة فقط يعرفون كيف يجمعون الأدلة ويصكون بها وجه المجرم. مرة واحدة فقط ياربى! حتى ندخل قبورنا راضين.. ولكن لا! لن نرى ذلك حتى نموت..

واللص دائما هو المنتصر، لأن إثبات الجريمة لا يتوقف على معرفة القانون فحسب، بل لابد أيضا من معرفة الشقوق والدهاليز التى يختفى فيها أو يتهرب منها اللصوص، هذه الشقوق والدهاليز هى مكامن القانون الثانى الذى تحدث عند المحامون الذين لا يتقاضون الأجر على معاونة العدالة، بل يتقاضونه على إخراج المجرم من بين يدى القانون كما تخرج الشعرة من العجين.

وفى مصر كما فى كل بلاد الدنيا محامون يأخذون الأتعاب على إخراج المجرم من جريمته أيا كانت، هؤلاء يسمونهم عباقرة، وفلان الفلانى مثلا لا يمكن أن يخسر قضية. إنه أمر مستحيل، وأمام هؤلاء العتاولة ماذا يعمل الناس الطيبون الذين يرفعون راية من أين لك هذا؟

واصحابنا أو أعداؤنا اللصوص يقولون: من أين لى هذا؟ سبحان الله، وأنت مالك؟ إن كان لديك دليل فتكلم وإلا فأقفل فمك ولا تتجرأ على الأكابر يا ابن الأصاغر.

وعنده حق.

ثم تسألنى: لماذا يتكاثر اللصوص؟ وأجيب يالك من ساذج طيب القلب.

لقد قال برنادشو إن بعض المحامين وظيفتهم البحث عن وسائل مخالفة القانون، وصدقنى أن المصيبة كلها أتتنا من أن اللصوصية أتت من فوق، الكبير سرق، فاستهان الصغير بالشرف، الكبير فقد الحياء ومد يده، والصغير اطمأن إلى أن السرقة حلال، ولولا اللص الكبير ما كان اللص الصغير، ولكننا مع ذلك لا نفقد الأمل لأننا نعيش فى بلد يفخر بقضائه، وهذا حق، ومهما طال الأمد فسينتصر القانون.

آه يا سادة لو جعلنا راتب القاضى ألف جنيه فما فوق.

آه يا سادة لو وضعنا نظاما يحدد لنا من يصلح للقضاء ومن لا يصلح، إنجلترا لا يحددون راتب القاضى بل يدعونه يقرر المبلغ الذى يرى أنه يكفيه ويعطونه إياه دون مناقشة، لأن القضاء ليس وظيفة، إنه رسالة، إنه أساس استقرار المجتمع، والقاضى هو الإنسان الوحيد الذى تعين له الدولة حاجبا يأمر الناس بالوقوف إذا دخل، وهى ميزة لا يتمتع بها تحت سماء مصر أحد غير القضاة.

والإمام الشافعى عندما عرض عليه القضاء قال: أنتم لا تعلمون ضعة حالى أمام هذا الشرع، ولو علمتم ما سألتمونى أن أتولى القضاء.

إن الخط الفاصل بين الحلال والحرام، بين ما يزين وما يشين، يتلاشى فى مجتمعنا رويدا رويدا، والجزار الذى يرفع ارباحه إلى مائة وخمسين فى المائة يقف على نفس المستوى مع عضو هيئة التدريس الذى يؤلف صفحتين أى كلام ويبيعهما للطلاب على أنهما علم، وسعر النسخة من كتابه المطبوع بطريقة الماستر – أى الرونيو – يحدده السيد المؤلف بحسب ما يرى: من ستة جنيهات إلى عشرة، والتلميذ يشترى من المؤلف مباشرة أى أنه كله مكسب.

وأنا لا أغضب على الجزار، فقد خرج إلى الدنيا وأمامه قواعد وضعتها له طبقته، قواعد السرقة والنهب والخطف وكله حلال، وفى الماضى كان يبيعنا الورق الذى يبيعنا اللحم فيه بسعر اللحم، واليوم هو لا يحتاج حتى إلى ذلك، لأنه يقرر السعر، والناس تدفع، وهو يعطيك الكيلو ثلاثة ارباع كيلو، وإذا لم يعجبك فاشتر من جزار آخر.. وهو لن يكون أرحم، واسمع هذه الحكاية.

أتانى ذات يوم فى مدريد رجل مع ابنه، والابن كان قد أصيب فى عينه، فهو ضابط وكان يحارب فانفجرت بين يديه قنبلة اصابت عينه، وقد أتى مع أبيه إلى إسبانيا ليجرى عملية، وحكاية الأب حكاها لى زميل فى السفارة، إنه لص وأمواله لاتكاد تحصى، ومع ذلك فقد حصل على موافقة الدولة على العلاج على نفقتها، وسيادته ينفق المال شرقا وغربا، والفساد عنده إلى الركب، وهذه بيضاء وتلك سمراء، وسهرات الليل لا تنتهى، وقال لى الأب:

– آتى معك إلى برشلونة لكى أكون إلى جوار ابنى.

قلت له: يا فلان إن ابنك على عينى ورأسى، أما أنت فابق هنا فى مدريد واستمتع بحياتك، لأنك إذا أتيت معنا حل علينا شؤمك.

بقى فى مدريد وذهبت مع الابن وأجرى العملية ونجحت وقلت له:

– أتدرى لم شفاك الله؟ لأنك شاب طاهر تحب وطنك، سألتك بالله لا تسر فى طريق أبيك.

وعدنا إلى مدريد والرجل ابتسم وهو يرى عينى ولده.

ثم قال لى:

– أريد أن أكافئك يا دكتور..

– لقد كافأنى ابنك، وأنا عندما أنظر إلى وجهه أشعر بنعمة الله علينا، لأن الله سبحانه رب قلوب ورب مؤمنين.. أنت لعبت وعربدت واستمتعت، ونحن لن نأخذ مليما من مالك الحرام، لأن الله سبحانه أغنانا بالحلال عن الحرام.

معقول يا ناس؟

هل هذه مصر التى عرفناها؟

ذهبت إلى القناطر الخيرية لأستمتع بالخضرة فلم أجد خضرة. وإنما وجدت ارضا جرداء وبقعا من الخضرة قليلة. وقلنا: أين الحدائق يا ناس؟ واين نجلس ويظهر لنا من حيث لا ندرى رجل يحمل حصيرة ويقول: هذه حصيرة تجلسون عليها وهى تعفيكم من الجلوس على التراب.

ودعونا له بخير وشكرناه وفرشها وجلسنا عليها، وقال الرجل فى تواضع: معذرة.. أجرة هذه الحصيرة..

– وهل لهذه الحصيرة أجر؟

– جنيهان فقط.

– سبحان الله ثمنها كله لا يزيد على جنهين..

–آه يا سيدى هذا حق، ولكنى لست وحدى، هناك سلم من الموظفين فوقى إلى المدير، ولكل نصيبه من الجنيهين.

– قاتلكم الله. إذن فأنتم تهملون الزرع لتتاجروا فى الحصر.

يا سعادة البيه خلينا نعيش.

لا والله يا صعلوك. والجلوس على التراب خير من مساعدة اللص.. هذه حصيرتك لا بارك الله لك فيها..

هكذا يخربون مصر ويحيلون خضرتها الجميلة إلى تراب ليتاجروا فى الحصر.

يظنون أنهم يكسبون.

لا والله ما يكسبون، والمال الحرام لا يدوم..

أتعرف كيف؟ لقد قرأت فى الصحف أن وزارة الداخلية رفضت إعطاء رخص لراقصات جدد لأن عدد رخص الراقصات بلغ أربعة عشر ألفا.. ياإلهى.. أربعة عشر ألف راقصة، وهل فى مصر مكان عمل لهذا الجيش من الراقصات؟ لاياسيدى. إن عدد الراقصات العاملات لا يزيد على ألفين.

والباقى؟

منحرفات!

ومن أين تأتى المنحرفات؟

إن الفقيرة نادرا ما تنحرف لأن رأس مالها الوحيد هو العفة.

إذن فمن أين أتى هذا العدد الهائل من المنحرفات؟

من بنات اللصوص والمنحرفين، وأجداد هؤلاء التعيسات لصوص، فنشأن على الترف والكسل.

وذهب المال وبقى الكسل وحب الترف، وتنحرف البنت أو المرأة.

حذار أيها اللصوص فهذا المصير ينتظر حفيداتكم، وأذكروا قول الشاعر:

عفوا تعف نساؤكم عن محرم وتجنبوا ما لا يليق بمسلم

إن الزنا دين إذا أقرضته كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

والزنا كالسرقة وكل الموبقات كلها ديون..